



* قد تعوزه الحكمة من يتجاهل حقيقة مجريات الأحداث في المنطقة العربية، وما يخص الساحة السورية، وما لاتها، وإن كان البعض قد حاول إقناعنا طويلاً عبر استعراضاته اليعربية، ما هو ليس حقيقة فيه، وكانت قد باتت تتوضّح منذ أزمان النكبة الثانية ما بعد عام 1967 الاصطفافات المطبوعة بمحاولات تشظية المنطقة بين القبائل والطوائف والإثنيات المتواجدة فيها، وإن كانت قد اتخذت هذه لبوساً استعراضياً له كل أشكال الكفاح الوطني والمطلي والمسلح علموياً باليديولوجيا المستقدمة والكلاشينكوف، فظاهره الإزدواجية المرضية وأعراضها قد بدأت منذ ذلك التاريخ، منذ صدمة الإحباط الأولى 1961 بعد الوحدة، والثانية بعد النكسة عام 67 وما تبعه من خواء سياسي ووجودي، لم تستطع تدارك عقابيه السلبية كل سنوات النضال الجاهدي عبر المقاومة الجادة المسلحة لتحرير فلسطين بقيادة الرعيل الأول الوطني القومي النظيف، ولتوئد أحداث لبنان المتفجرة ما بعد عام 1977 ما كان قد بقي من مشاريع إحياء بعد القومي لدى شباب الستينات ولتنعطف المسارات بعدها إلى اتجاهات أخرى منحدرة تحمل في طياتها كل خطورة التلاشي...، لكن كل هذا لم يكن بعيداً عن مراقبة الأنظمة العربية وتفهمها للأوضاع، ففي محاولتها الجاهدة في الحفاظ على نفسها، إذا استبعدنا عنها كونها نقطة التوازن، والتقاء الاختلاف بين مكونات شعب الوطن وهو المنطق السياسي لبقائها، فإنها من الناحية المقابلة لم تكن تغفل عن مصالح الدول المحيطة والبعيدة ومدخلاتها الجائعة المترسبة في محاولات دائمة منها لاسترضائها، لدرء الأخطار واستدراك التغرات التي يمكن أن تنفذ منها..

* ليس للشعب (جماعة) سوى الوطن حيث يقيم، والوطن هو الأرض والشعب معاً، إذ لا يمكن لأحد أن يتخيل شعباً دون وطن؛ ففي حالة التهجير القسري مثلاً: شعب الأرمن (تركيا) أوائل القرن 20، وأهل فلسطين عام 48 و67، من القرن ذاته، تكون حالة الوطن لديهم في حراك الشعب بكل أنواع النضالات لاسترداد الأرض وإعادة حالة الوطن للشعب، الحراك هو الوجود وهو القضية المعلنة للوجود والضامنة له، فأرض الشتات ليست وطننا بديلاً، وإنما أرض مضيافة، ولا يمكن أن

تكون، أما الوطن هو في الذاكرة الفاعلة المحرضة، هو في العقل المدبر وأنا كفلسطيني هناك أعيش حتى أعود، وإذا غاب الوطن أموت؟، ومع تغريب كل أنواع الموجبات العثمانية الحادثة في المجتمع العربي لإعلان المواطنة في دولة الوطن وفق الدساتير المحدثة فيها، يعيش إنسانها بنوع من مجتمعات الشتات لكن على أرضه، في انتظار استرداد وإعلان وجوده الفاعل، وإلى ذلك الحين ليس لإنسانها سوى الوطن الأرض حيث يعيش، حيث هويته وجوده، لكن هذا لا يجوز الخلط فيه واعتبار فقدان المواطنة الوجود الفاعل، بشكل ما فقدانا لأرض الوطن، إذ أن هذا أمر آخر وخطير يوصل التفريط فيه إلى مهافي الخيانة، من هنا اعتبرت أرض الوطن من المقدس، المحرم الذي لا يجوز المساس فيه؟، وعلى هذا المفهوم تأسس معظم مواقف الشعب الشرسة والمستميتة في الدفاع عنه، ومنها مواقف الشعب السوري الآن في مقابل ما يواجهه، إذن فليست المسائل الخلافية وهي النتائج الطبيعية المرافقة لتشكل الدول العربية وفق المعايير الدولية ورغبات حكوماتها، كالمسائل التناقضية؟ فالمسائل الخلافية التي تمثل في اندفاعات خلافية بين شعب الوطن الواحد (البحرين)، يمكن اعتبارها قضايا تكاملية تتواءن في اتجاه نحو الأفضل، بينما قضايا شعب ذات الدول مع الغرب المعادي أساسية تحتمل إلغاء الوجود، وعليه فإن الموقف في حالة دول المقاومة والممانعة يختلف (خوفاً من استغلال حالة خلافية ناشئة إذا لم تكن من أصلها مدبرة ومقتلة)، فشعب هذه الدول (وها نعني السوري) غالباً يعرف ما هو الأفضل له، ورؤيه الغير لموضوعها وموقفه منها تبعاً ووفقاً لأحكامها يجب أن تختلف أيضاً لأنها في وضع حالة الدفاع عن المقدس، والإعداد لاسترداد المقدس كما هو مفترض (أرض فلسطين)؟

* حتى لا نقول أن إثارة (التماثلية المفترضة) في ما يتعلق باحتجاجات البحرين الديمocratية صادرة عن عقل خبيث تفوح منه انتنات التشككية الطائفية والتکفیرية للآخر؟، كعيبة إيحائية للبحث المجرد في مسألة الداخل السوري؟، نقول: ومع هذا فإن البعض يتقصد المواربة بما يخالف العقل والمنطق، في رفض مقاربة المقاومة الإسلامية اللبنانية للوضع الاحتجاجي في سوريا مع الوضع الاحتجاجي البحرياني، (في اعتبار الوضع في دول المقاومة يختلف) وهذا ليس فقط وجهة نظر وإنما تحصيلات منطقية وعقلانية صحيحة، فقد رأينا من منطق مغاير (معادي) غير مؤهل من يدلي بدلوه لعرض ما يحسبه وجهة نظر، فيفبرك المعدلات التماثلية المغلوطة بين الاحتجاجات الشعبية البحريانية وما يسمى الاحتجاجية السورية؟، ففي البحرين أغلبية شعبية عربية منظمة ومؤطرة في أنشطتها الحزبية المعروفة، لها تاريخ نضالي قومي طويل في الدفاع عن الأرض والوطن ومساهمات كفاحية في الدفاع عن القضايا المصيرية العربية وقضايا التحرير ومنها قضية فلسطين، وهذه الأغلبية ترفض الفوضى الملكية الحاكمة، وتجبر الحكومة للبلاد إلى القوى الأجنبية الغربية ومصالحها، وتطالب بملكية مقيدة بأحكام الدستور بما يضمن مصالح الوطن والمواطنين وهذه مطالب شعبية حقيقة ومحقة لا خلاف عليها، فما كان من ردود فعل الحكومة البحريانية حيالها، سوى الرفض لمطالبتها، واستدعاء القوى الأجنبية (بلبوس عربي) لما اعتبرته تهديداً لأمنها الوطني؟ واتخاذ الإجراءات القمعية بحق المواطنين ورجالات المعارضة البحريانية وزجهم بالسجون وإصدار بحفهم أحكام الإعدام؟، دون أن يحرك العالم المعنى ومؤسساته ومنظماته الدولية الإنسانية ساكناً؟

* أما ما يسمى الاحتجاجات السورية فالامر مختلف ليس في موضوع كونها دولة ممانعة، فنظامها السياسي مختلف كون الحزب يمثل كل شرائح المجتمع وأداة تحاول فعالة، ومسألة أزمتها الاقتصادية والمعيشية لا تنحصر في احتكار الثروات من قبل القلة، بل كونها ليست أرض الذهب كالسعودية ودول الخليج ولبيا، بل أرض تعتمد على العمل والإنتاج، وهذا متغير لأسباب تتعلق بتركيبة البنية الحكومية الموروثة والمتناهية منذ الخمسينات عهد (الشيشكلي) في اعتماد أعداد كبيرة من

الشباب ممن هم في سوق العمل ضمن دوائرها الوظيفية، فالدولة أي حالة الشعب هي هذه، (طبقة وظيفية متضخمة) والمنخرطون في تسيير شؤونها، وهم أبناء شعبها، هم من يطبعونها في طابعهم، وعليه فالفساد فسادهم والقمع إن وجد قمعهم وهم يعرفون ذلك؟، (وكما يقول المثل الشعبي دود الخل منه وفيه) وعليه فهم لا يريدون العطف أو النصيحة في هذا الموضوع من أحد؟! إذن فما يسمى الاحتجاجات السورية لا أرض لها أي مفتعلة؟

* ولا ينحصر موضوع الاختلاف عن الاحتجاجات البحرينية في هذا الموضوع فقط، بل أيضاً بما يتعلق بأصل المشكلة، فال موضوع الاحتجاجي البحريني مقلوب عما هو قد حصل في سوريا في الشكل والمضمون، ومع ذلك يصر مثقفو الشيشة موزة والمستكتبون على صفحات جزيرتها ويقبضون على تماثله معه، كيف؟، نحن لا نعلم؟؛ إذ لا وجود في سوريا لما يسمى معارضة وإنما هذا اختراع غربي وبدعة يروجون لها، وهذه المروج لها وأشخاصها كأمثال الخدام والبابيانوني وغيرهم المرفوضين لسوئهم والحاقدين والثاريين، يتصدرون صفحات الأخبار الإعلامية التابعة دون يعني هذا الشعب السوري شيئاً، وهؤلاء قد أعلنوا صراحة ومن محطات معروفة باستعداداتهم لاستخدام السلاح ضد البطش الأمني حسب تعبيرهم، وقد أعدوا لذلك عدتهم، إذن فما يدعى بالاحتجاجات إنما هي غطاء لاستدخال مسلح وليس احتجاجات، وقد تكشف هذا للشعب في سوريا فاندهش من أمر كهذا واستغرب؛ وليس هذا فقط ما صنعوه على الأرض السورية، بل أن هؤلاء أيضاً المدعون معارضة: لم يخلوا عن التهams فيما بينهم وبين (هواشتهم) المأجورين في الخفاء وفي العلن عن فخارهم باستقوائهم بالأجنبي واستدعاءاتهم له وترحبيهم به، بما يشمل هذا دولة إسرائيل لتحرير سوريا أي احتلال أرضها؟!

* إذن ثمة خطب ما يعمي هؤلاء، فلا يكشف أمام أعينهم ما يذهبون إليه في تخطياتهم وتناقضاتهم، هذا الخطب صنعته سلسلة الصدمات المحبطة في جسم لين مقابل استسهال تحقق الأهداف الوردية والحلم الجميل، فأفرغت عقولهم، بما يتجاوز عيشهم الأزدواجية، ونقلتهم في مفارقة مع واقعهم للعيش الدائم في الحلم، هذا الحلم المتجسد دائماً والمستقر في عالم الغرب الذي يفاخرون بالتماهي فيه وتقليله حتى في شكل معاشهم وملبسهم وعوائدهم على ما في هذه الصورة من هزل وإضحاك لا يعونها؛ لذا نتحفظ في اتهامهم بالعمالة والجاسوسية، إذ ليسوا سوى مرضى خطرين قد يكون من المستحسن الحجر عليهم، كما نطلب لهم عاجل الشفاء؟

* عموماً، لم يغب عن ذهن شعب المنطقة وخاصة السورية وأيضاً أصارحها الحضارية، (لكونها تمتاز منذ القدم بخاصية حراك العمل والإنتاج على أرض مستقرة وما ينتج عنه من علاقات وضرورات تعتبر أصل الأعراف والقوانين وطرق التنظيم، والتي تدفع هذه بدورها بالضرورة إلى امتلاك خاصية التفتح والإبداع والابتكار)، ما يعني به حالة الدولة وتطورها وتكونها، وأن الشعب صاحبها وتبعاً صاحب السلطات فيها، وهذا فيما يعنيه كمحصلة امتلاكه للحرية والإرادة الحرة في أن يفعل ما يشاء، وفي أن يتخذ شكل الحكم والسلطات وإطار منظمها السياسي وتوزع مؤسساته وعلاقتهم فيما بينهم وعلاقتهم فيه بما يضمن حقوقه ودوامها وكرامتها في أجواء مدنية آمنة، بما فيها حقوق الآخرين والجوار، لذا فمن المستغرب إعادة طرح مفاهيم سياسية مترسخة لديه ويعيشها، في مفهوم غربي غريب لا دلالة له لديه ولا معنى، ولا حتى عند من يطرحها ويرددوها لأغراض مدفوعة الثمن، وهو حتماً يجهل حتى أصولها وأسبابها وظروف وجودها في منابتها؟.. فالشعب في سوريا لا تستورد له الأعراف والتشريعات والقوانين والأنظمة ولا شعاراتها ولا تفرض عليه لأنه يعيشها في البيت والعائلة الكبيرة

والقرية وشارع المدينة، ولا حاجة له باستعراضات عنها وأبواق تضم الأسماء؛ وإن كان يظهر هنا وهناك بعض الشوادع من المنتفعين والمتمسحين والمتسلقين من (العطالين البطالين) بفعل أحداث طارئة ممن تخلوا عن منابتهم وجحدوا، الخارجون عن المجتمع، إلا أن المجتمع بينما تستقر الأمور سرعان ما ينبدهم من صفوفه إلى غير رجعة؟

* حتماً ستضيّع الحقيقة وال المسلمين المترسخة وأيضاً كل ما هو مقدس، عن من غابوا، وعن من تخلوا عن مجتمعاتهم، هذا إذا أبعدنا سوء الظن عنهم، وأفترضنا حسن النية فيهم، فليست الكرامة والحرية منفصلة عن الوطن والعمل، وهذا خارج الأرض والوطن لا مفهوم لهما، إنما هي شعارات تعيش في الخيال، وفي خيال مريض، وإنسانها إنما يعيش حالة الإزدواجية، وإنما يحتوي الواقع ليعيش في الخيال، ليتصور ويصنع الواقع كما يشاء، فالقهر طاغي، والعفاريّت والجان القامعون موجودون في كل مكان، ينبعون من الشجر ومن الصخور ويتناسلون من القحط والكلاب، فالحرية والديمقراطية هما الأساس، وهذا مفقودتان في المجتمع كما يتخيل، هو ضد المجتمع، إذن لا وجود للمجتمع أكلته العفاريّت، الحرية والديمقراطية موجودتان في الغرب وإسرائيل، إذن هناك الوطن، وهناك الحياة، وفق هذا المنطق الغريب والمجنون يعمل البعض، فيضعون التبريرات ويتخيّلون صور أحداثـ (قمع، ناس ضد ناس، وجيش مقسوم، وبلاط خرجت عن البلاد، حكومة تقاعست في مواجهة الأعداء وعسّكراً الانتفاضة وكلام كبير وتفاصيل؟، فساد وظلم، احتجاجات وقتل وسرقة، قوادين وعواهر وحالات اغتصاب، خلط عجيب من عقل عجيب، وأيام حداد)، ثم يقلّبونها إلى وقائع يتحدّثون عنها ويتناقلون تفاصيلها بكل جدية، وإذا حاولت من عقل واع ومتزن وضع الحقائق أمام هؤلاء فإنهم يرفضونها، ولا يصدقون، هؤلاء في زمن الحرب على سوريا يستخدمهم الأعداء، يتعاملون معهم من منطقهم المرضي، ويضعون أبوابهم ووسائلهم الإعلامية في أفواههم وفي خدمتهم، ويعملوا الصراخ، ليعمموا على العالم بأن سوريا تعيش في عالم مجنون وتحتاج إلى تدخل وإلى إنفاذ وإلى وصاية؟

* ومع أن الشعب السوري يتقلب ويحار في أمره مع هؤلاء الذين أصبحوا فجأة ثواراً ومعارضين ولهم حماية المشروعية الدولية، بعد أن كانوا على هامش مجتمعه منبودين، فإن عينه من جهة أخرى ترقب وتنظر إلى ما هو خلف الأحداث المفتعلة، تنظر إلى المشاريع الغربية في المنطقة التي لم يكن أولها العراق ولا آخرها ليبيا، تنظر إلى الفوضى القادمة مع لواقت الكرامة ودولة الإسلام التكفيري الذي يكفر الإسلام، لأن الله أعطى أصحابه وحدهم حق احتكار الجنة وعندهم وحدهم عوالم الكرامة والحرية والحياة، هذه هي الدولة التي بدأت تلوح أعلامها وأفعالها من مراكش والجزائر مروراً بتونس ومصر المجازر، إلى فلسطين المدمّرة، إلى العراق المنكوب وتركيا القتل والخراب، لكن هذه الدولة لن تقام ولن يتّسنى لأصحابها الحكم لأنّه الباطل عينه؛ وهذا لا يهم؛ فمن صنعهم حدد أيضاً مهامهم ومهامهم الحالية تقويض ما هو قائم الآن لأنّه مدخل الكفر والظلم، أي الفوضى؟

* هل يريد هؤلاء من شعب سوريا أن يتّجاهل ويغمى عن كل ما يجري حوله وما يحاك؟ أم يريدون منه أن لا يصدق ما يراه؟، وأن هذا مجرد وهم وإشاعات أو أنه من عالم آخر لن يطاله شيئاً مما يحدث حتى الآن وهو في عين الحدث والمكان؟، وعليه فقط أن يصدق أن أبناءه يقتلون بعضهم وأنهم أعداء كما تقول الدعائيّات؟.. أما أعداءه من رجم إخوته بالصواريخ وقتل الملايين من شعب العرب وأفقر الملايين وشرد الملايين في الشتات، هم الأحباب، وهم الحمائم الحاملة لأغصان الزيتون والخير والعدل والخلاص، الشعب السوري يعلم بأن ليل مساره لم يكن كله مضاءً مقمراً، وأن مطبات كثيرة قد اعترضته

وعثرات، وهو قادر على تجاوزها كما تجاوز غيرها، الشعب السوري يصبراليوم على ما يمارس ضده ويتفهم ما يحدث على أرضه، وحجته في انتصاره القريب الحق والثبات، الشعب السوري عينه لا تنام، عينه على ما وراء الأحداث في انتظار الغد الذي يأتي بالأمان مع انتصار الحقيقة، والعقل والسلام.

المصادر: